السخرية و سؤال الأخلاق في الثقافة العربية الإسلامية
جدل الهدم و البناء

د/ نوال بن صالح
جامعة بسكرة

الملخص :

يناقش البحث ظاهرة من ظواهر الخطاب،أمست وسيلة مبجلة في تمرير المعنى من خلال صوغه في شكل موارب،يتوسم بالضحك آلية و غاية ، نقد المجتمع في أحواله المختلفة.إنها السخرية التي تطرح مقاربتها مشكلة أخلاقية في الثقافة العربية الإسلامية من حيث كونها منهي عنها صراحة في نص القرآن الكريم.من هنا سعينا إلى تقصي مفهوم السخرية المرفوضة من منظور الدين والأخلاق، و من ثم غايات السخرية و جدواها إن كان أثرها الهادم لا يمكن اجتنابه.

Abstract :

The research at hand discusses one of the speech phenomena which became a preferred tool in conveying meaning in an indirect way. It is marked with laughter mechanichally and with critisism of society in its different states and forms intentionally. It's the irony whose approach proposes an ethical matter in the Muslim Arabic society for it's literally forbidden in the Holy Quran. From here, we aim to identify the meaning of the unexpted/ rejected irony from a religious and ethical point of view, and its goals and usefulness baring in mind its inevitable destructive effect.

عتبة الاستهلال

تملكنا البحث في أشكال الخطاب الساخر في الثقافة العربية الإسلامية بسبب قلة العناية بالبعد الضاحك في التراث الثقافي و الفكري العربي بشكل عام،إذ كثيرا ما أهمل البحث الأكاديمي العربي قديمه و حديثه المتون التي تتعلق بالضحك أو تحيل إليه. و ظلت هذه المتون لا تعدو الاستدعاء للحديث عن جلسات المسامرة و الفكه المجرد بعيدا عن الموضوعات الجادة التي تُشحذ لها الأقلام و تُتخير فيها النصوص الموسومة بصفة الجد إلا فيما ندر[1]،إذ لا تزال النظرة الضيقة تجهد نفسها في اعتبار الضحك ندا للجد. حتى إنه لم يرسخ في الأذهان من التراث الفكري العربي إلا ما يتسم بالجد، فقد ظل هذا الموروث (الجاد) في مركز الاهتمام البحثي، في حين أقصيت الثقافة الضاحكة الفكهة إلى هامش الفكر، حتى أمست السخرية مزيّة لكل ما هو شعبي سوقي. هذا عن الفكه و الضحك بشكل عام ،أما إذا تعلق الأمر بالسخرية تحديدا، فإن الأمر يزداد صعوبة و تعقيدا إذ يحيل المصطلح (السخرية) على دلالة أخلاقية وثيقة الصِّلة بالثقافة العربية الإسلامية. من هنا لا تزال مقاربة السخرية تتلبس بوشم التوجس و الحيطة بسبب ملمحها غير الأخلاقي فيما رسخ من القيم الأخلاقية العربية الإسلامية.

إن اختيارنا للسخرية موضوعا للبحث يمثل محاولة لبسط مدى استيعاب الثقافة العربية الإسلامية لهذه الاستراتيجية الخطابية، و أثرها في تكوين الوعي النقدي الثقافي العربي و الإسلامي. و إن كانت الدراسات التي عالجت السخرية من ملمحها الأدبي و البلاغي غير قليلة، فقد شكل الأدب مدخلا نفذت منه الرؤى حول السخرية ،نذكر من بينها: " السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري" لنعمان محمد أمين طه،و "السخرية في أدب المازني " لحامد عبده الهوال، و كتاب "سيكولوجية الفكاهة و الضحك" لزكريا إبراهيم،و " أدبنا الساخر" لنبيل راغب. كما عالجت كثير من الدراسات الحديثة السخرية من جانبها المفارق ، مثلما فعلت نبيلة إبراهيم في كتابها : "فن القص في النظرية و التطبيق" حيث أفردت فصلا للمفارقة(و تعني بها المفارقة الساخرة). و هذا الملمح في السخرية هو نفسه الذي عالجه محمد العبد في كتابه " المفارقة القرآنية" .و من المراجع التي عنت بالسخرية في أدب الرحلات كتاب " العين الساخرة ، أقنعتها و قناعاتها في الرحلة العربية" لعبد النبي ذاكر. إذًا حتى و إن كانت الأبحاث التي قاربت السخرية ليست قليلة إلا أننا لاحظنا أن هذه المراجع، قد قاربت السخرية في المتون الأدبية المختلفة قديمها و حديثها في أبعادها الأسلوبية و البلاغية والأدبية و السيكولوجية، لكننا لم نجد مرجعا قارب السخرية بالدراسة من ملمحها الأخلاقي،عدا بعض المقالات النادرة منها بحث جابر عصفور المنشور في مجلة العربي بعنوان "سخرية المقموع". تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تعرض لمفهوم الخطاب الساخر في وعينا الثقافي العربي و الوعي الإنساني بوجه عام ،و محاولة إزاحة الالتباس عن مفهوم السخر نفسه،إلى

جانب مناقشة الجدل الذي تثيره السخرية بين وظيفتي الهدم و البناء.مستفيدين في ذلك بآليات نظريات القراءة و التحليل الأسلوبي.

1- مصطلح السخرية:بحث في المفهوم و الأبعاد:

يطرح مصطلح السّخرية –من البداية– إشكاليةً حول مفهومه ودلالته،ولعلّ العودة إلى أحد المعاجم اللغّوية العربية، وتتبّع المعنى المعجمي لكلمة "سخرية"لا يسعف تماما في فهم طبيعة المصطلح و حمولته الدلالية ، وإدراك آليات اشتغاله. نظرا لتشعب مفهوم السخرية وتماسه مع مصطلحات شبيهة بما يحيل إليه السخر، من تهكم و هزء و هزل و ازدراء و غيرها من المفاهيم.

إن نشأة مصطلح السخرية ارتبطت بالمبحث الفلسفي أساسا، فقد هيمنت شخصية سقراط و منهجه في المحاورة على مفهوم السخرية عند المؤرخين و البلاغيين و الفلاسفة.و السخرية السقراطية منبثقة من المحاورة، فلا يستقيم لها تأثير و لا معنى إلا ضمن وضعيات حوارية.و سخرية سقراط هي "فن الإقناع" بامتياز،لأنها لا تسعى إلى تحقيق الغلبة على المخاطَب سعيها إلى إقناعه و جعله يعرف نفسه بنفسه من خلال الوقوف على وهن يقينياته.[2] لمن بالرغم من ارتباط السخرية بمحاورات سقراط لضحاياه حتى يخلخل مسلماتهم،إلا أن السخرية وجدت في كل العصور و، في جميع الثقافات لأنها شديدة الارتباط بكا ما هو إنساني.

إن السّخرية من أرقى أنواع الفكاهة إذْ إنّها تحتاج إلى دهاءٍ ومكرٍ وخفاءٍ. "والسخرية استراتيجية خطاب مقموع، يقاوم به المقموع قامعه، ينزع عنه براثنه، وذلك على نحو يخلع عن القامع أقنعته المخيفة، ويحيله إلى كائن يمكن مقاومته والانتصار على أدوات قمعه التي تتحطم مع بسمة السّخرية الماكرة، التي هي نوع من المقاومة بالحيلة"[3].وليس من المصادفة والأمر كذلك، أن يؤدي دال (سخرية) وجذره ومشتقاته معاني الاستهزاء والاحتقار والإهانة والترويض والتلاعب، فضلا عن التنكيت، نقول "سَخِرَ منه وبه سَخْرًا وسَخَرًا وسُخْرًا: هَزِئَ، والاسم سُخْرَةُ وسُخْرِيًا وسُخرِيَةً، وفُلَانٌ سُخْرَة وسَخَرَةٌ، يضحك منه الناس، ويضحك منهم، وهو مسخرة من المساخر"[4].

لقد حامت مشتقات الجذر "سخر"حول هذه الدلالات وأدّتْها في آيات مثل:**لايَسْخَرقَوْم من قوم عَسَى أنْ يَكُونوا خيرًا منْهُم**﴾ الحجرات، الآية: 11وقوله تعالى: ﴿**زُيِّنَللذينكفروا الحياةالدّنياويسخرونمنالذينآمنوا**﴾ البقرة، الآية:210، فالآيتان تشيران إلى معنى الاستهزاء والإهانة التي لا تفارق دلالة التحقير، وذلك في موازاة الآية ﴿ **ثماستوىعلىالعرشوسَخَّرالشّمسوالقمر**﴾ الرعد، الآية: 02 التي تؤدي معنى الترويض والتوجيه إلى أداء غرض أو غاية، و التسخير: جعل الأمر مطيعا كما في الآية ﴿**وسَخَّرْنَامعداودالجِبَالَيُسَبِّحْنَ والطير و كنا فاعلين**﴾ الأنبياء، الآية:78ومثلها قوله تعالى: ﴿**والسَّحَاب المُسخَربينالسَّماء والأرض**﴾

البقرة، الآية:163 ،و تأتي الصيغة (الصرفية للدلالة على المبالغة في السخرية كما في الآية ﴿**وإذارأوآيةًيَسْتَسْخِرون**﴾الصافات، الآية: 14 .

و الحقيقة أن السخر يرتبط بعديد المصطلحات البلاغية التي تحيل إلى دلالات قريبة،و لعل أقرب هذه المصطلحات:التّهكم هو استخدام الكلام للتعبير عن معنى مغاير للمعنى الحرفي بقصد السخرية، وتستخدم نجلاء حسين الوقاد "التهكم" مرادفا لمصطلح (Irony) الإنجليزي،"والتهكم ليس مجرد أداة أدبية وفنية لصياغة الأعمال الأدبية،بل يمكن أن نقول أنه بمثابة منهج استطاع أن يشكل رؤية الأدباء للحياة ذاتها، وبالتالي فإن استخدامهم للأدوات الفنية المتعددة للتهكم يخضع لهذه الرؤية، فالتهكم يتحكم في كل من الشكل والمضمون، ويمثل ركيزة أساسية تنهض عليها أعمالهم"[5]أما بلاغيا" فالتهكم من تَفَعُّلٌ من قولهم تهكمت البئر، إذا تساقطت جوانبها وتهدمت"[6]وهو تعبير عن شدّة الغضب،لأنّ الإنسان إذا اشتدّ غضبه فإنه يخرج عن حدّ الاستقامة وتتغير أحواله. من نجد مصطلح التهكم شديد اللصوق بالاستهزاء من حيث رغبتة المقصودة في الإيذاء اللفظي والنفسي و يفرق أبو هلال العسكري (ت 400هـ) بين الاستهزاء و السخرية بأن "الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله،و السخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه. و ذلك أن تقول : استهزأت به، فتعدى الفعل منك بالباء،و الباء للإلصاق كأن ألصقت به استهزاءً من غير أن يدل على شيء وقع السخر من أجله. و يجوز أن يقال: أصل سخرت منه التسخير، وهو تذليل الشيء،و جعلك إياه منقادا، فكأنك إذا سخرت منه جعلته كالمنقاد لك". [7]

و عليه نعتقد أن في التّهكم ملمح من ملامح السخرية، أو آلية من آلياتها و هو الهدم، لكن السخرية لا تقف عند مرحلة الهدم. و لا الهدم غاية من غاياتها. فالسّخرية تسير في اتجاهين:اتجاه إيجابي بناء، و اتجاه سلبي هَدّام، والهدم مرحلة حتمية في إعادة البناء، وأَيًّا كان اتجاهها وشكلها، ومناسبتها فإنّ طعم القوة هو نكهتها الخاصة، لكنّ هذه القوة ليست هي نفسها في كلّ مجالات السخرية، إذْ تتفاوت درجة حِدّتها وقسوتها بحسب ما يقتضيه السياق، فهي تبدأ بما يعرف بالغمز واللّمز،اللّذين غالبا ما يردان في إطار من اللّهو والظُّرف والضّحك، يبعدهما عن الإصابة المباشرة الجارحة، ويُلَطِّفُ وقع السخرية في النّفس، هذا الوقع الذي يُسْتَشَفّ استشفافًا، ثم تقوى السّخرية شيئا فشيئا حتّى تصبح هوجاء، مُهَشِّمَة، تنال من هدفها دون مواربة، وعندها تسمى تهكما و هجاءً[8]"أما الهزل فهو يكاد يكون مطابقا لمفهوم التهكم وهو من أقدم أنواع السخرية الهازلة ويعتبر أشدّ أنواع السّخرية مباشرة وحدّة، لأنه يعتمد على النّقد اللاّذع والهجاء البذيء"[9]. و الحقيقة أن ما يجمع بين هذه الأشكال هو خاصية الضحك.لكن الهدف من الضحك ليس نفسه في كل

استرتيجية خطابية مما سبق. و قد بين بيار شوانياز (*Pierre Schoentjes*) وظيفة الضحك في السخرية فقال:" فإذا كانت وظيفة السخرية أن تسأل،فإن وظيفة الضحك أن يسلي"[10].

أما فيليب هامون (Philipe Hamon) فقد أدرج السخرية ضمن مجال الهزلي (Le domaine comique) جاعلا السخرية تتوسط قطبي الضحك و الابتسامة موضحا ذلك من خلال الخطاطة الآتية:[11]

الضحك <----------السخرية ---------- الابتسامة›

(أ) (ب)

كما يمكن أن تكون السخرية وسيلة لمقاومة الحمقى والأشرار والمُعْوَجِين، "وهذه السخرية هي التي تحول بيننا وبين كراهيتهم، لأنّ ضحكاتنا منهم وسخريتنا بهم تخفف من غيظنا وغضبنا عليهم"[12]

وتشمل السّخرية الفنون التّشكيلية والآداب ،معتمدة في كلّ أحوالها على المراوغة التي تُبّطن غير ما تعلن، وتتلاعب بين مستويات القول وتعدد دلالاته، مبدؤها الدافعي رفض ما هو قائم ومهاجمته، فعدوانيتها المُراوِغة قرينة نزعة شك ومساءلة. يقول"عبد القادر المازني"محاولا تعريف السخرية أو الأدب الساخر:"ما هو السّخر، إذا ذهبنا نعتبره من فنون الأدب؟ إنّ هذه الوجهة هي–بالبداهة– كل ما يعنينا، إنه الكلام عما يثيره المضحك أو غير اللائق، من الشعور بالتسلي أو التقزز، على أن تكون الفكاهة عنصرا بارزًا".[13]

وفقا لهذا التعريف تتساءل "سها عبد الستار" عَمّا إذا كان السّخْر من فنون الأدب؟ حسب الاصطلاح المحدد لفنون الأدب من شعر ونثر وخلافه، وهل لا يثير السّخر سوى التقزز فقط؟ كما يشير إلى ذلك المازني. وإذا كان السخْر أو السخرية سمة أسلوبية يتميز بها بعض الأدباء، فإنّ أساليبه وأدواته لا بدّ وأن تختلف من أديب لآخر.[14] إلى جانب اختلاف أساليب السخرية، تختلف أشكال تجليها و درجة حدتها.

2- مسألة السخرية و الإسلام:

ليس من السهل الفصل بين الدين و الأخلاق في الثقافة العربية الإسلامية، إذ الأخلاق هي شديدة الارتباط بروح الدين تستمد منه قيمها،و تعول عليه في انتشارها و الإيمان بها.من المؤكد أن موقف الإسلام من القيم والمثل والممارسات التي كانت سائدة في العهد السابق(الجاهلية) لم يكن موقفا واحدا، فقد استبقى ما كان يتماشى مع روحه، وهذب ما أمكن تهذيبه

وألغى كثيرا مما كان متنافيا مع الصورة المثلى التي أرادها الله للمجتمع.

كان الحديث عن السخرية و لايزال موضوعا محفوفا ببعض الحرج،إذ يستدعي الموقفَ الأخلاقي بالضرورة، فالسّخرية بما هي رديفُ الهزء والضّحك من النّاس،أمرٌ منهيٌّ عنه وفق التّصور الديني، باعتبارها نوعا من الاستعلاء والتّسلط والإذلال.لكنّ السخرية من منحى غايتها الانتقادية، فنّ تعبيري يتجاوز الشكل العابث اللاّهي،إلى مدلولات إنسانية عميقة، تستحق البحث والتحليل.

إن هذا الخوف الذي يلتبس بمفهوم السخرية مرجعه إلى نهي القرآن الكريم بشكل صريح – في عدد غير قليل من الآيات–عن السخرية،تلك السخرية التي تسيطر عليها دوافع خبيثة ،منشؤها الحط من قيمة الآخر ،منطلقة من نفس محملة بالحقد و الكراهية و الكبر،قال تعالى: ﴿ **و لقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون**﴾ الأنعام:10 فقد كان المشركون يستدعون خطاب السخرية عند سماعهم دعوة النبي الكريم و يسخرون من كل آية يأتي بها قال تعالى : ﴿ **و إذا رأوا آية يستسخرون**﴾ الصافات:14 و بالرغم من هذا النهي الصريح من القرآن الكريم عن السخرية إلا أنه لا يخفى وجود الأساليب الساخرة في المتن القرآني نفسه، فقد أخبر الله عز وجل عن نفسه أنه يسخر. لكن السخرية القرآنية ليس غايتها الهزل لذات الهزل ،يقول جل و علا: ﴿إنه لقول فصل و ما هو بالهزل﴾ سورة الطارق،الآيتان:14/13

أمانظرة النبي() للسخرية فتحيلنا بالضرورة على نظرته إلى شعر الهجاء الذي ينضوى ضمن باب السخر الجارح. و قد كانت العرب تولي هذا النوع من الشعر عناية بالغة قبل الإسلام و بالرغم من خفوت جذوة الهجاء في عصر الدعوة المحمدية الأولى ثم الخلافة الراشدة من بعد ذلك،إلا أن هذا الغرض الشعري عاد بشكل أشد قوة و قبحا مما كان عليه في الجاهلية،كان ذلك أيام الصراع السياسي في خلافةدولة بني أمية . فقد ارتبطت الفحولة الشعرية في أزمنة عربية غير قليلة بالمقدرة على الهجو و السلح على الخصوم و الأعداء.

أما عن موقف النبي() من الهجاء– بوصفه شكلا من أشكال السخرية في الشعر– فقد كان موافقا لما جاء في كتاب الله ،و يمكن استقاؤه من موقفه () من الشعر فنجدالرسول () لا يذم الشعر على إطلاقه، بل يذم نوعا بعينه، هو ذلك الذي يجافي روح الإسلام و تعاليمه،و يباعد بين العرب و يفرق كلمتهم،و يذكي فيهم روح العصبية بكل أنواعها و آثامها.[15] في إشارة واضحة إلى نوع خاص من الشعر،هو شعر الهجاء الذي كان الشعراء يزاوجون فيه بين الفخر بالبطش و القوة و الحط من قيمة المهجو ،فيعلي بذلك من شأو الأنا ،و بالمقابل ينظر إلى الآخر نظرة دونية تحقيرية ترفضها روح العقيدة الإسلامية التي ترفض الهمز و اللمز و التنابز بالألقاب.

و يبدو موقف الإسلام أشد وضوحا من موقف النبي() ،من ذلك النوع من الهجو الذي يسلح على العدو. جاء في دلائل الإعجاز أن الرسول () قال يوما لحسان بن ثابت:

"أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية، فإن الله تعالى قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايته"فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة جاء فيها:

علقم ما أنت إلى عامر الناقص الأوتار والواتر

فقال النبي(□):" يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسك هذا"[16] من هنا نجد هذا النوع من الهجاء حتى ولو كان قد قيل في الجاهلية إلا أن النبي الكريم يعرض عن سماعه.إن الذي جعل الرسول(□) ينكر على حسان إنشاده هذه القصيدة، هو ما فيها من سباب وشتم وطعن في الأعراض، فكأن الترخيص بإنشاد هذا النوع من الشعر فيه تشجيع للشعراء للعودة إلى الخوض في مثله[17].

لكن بالمقابل نجده(□) يحث صحابته من الشعراء على هجو المشركين في إطار الرد عليهم،إذ قال لحسان بن ثابت:" اهجهم- يعني قريشا- فو الله لهجاؤك لهم أشد عليهم من وقع النبال في غلس الظلام.اهجهم و معك جبريل روح القدس"[18]. لقد أدرك النبي الكريم خطر الهجاء على المشركين،بل عده سلاحا في مواجهتهم،بل أكثر من ذلك رأى الكلمة الساخرة أوقع في النفس من رمية النبل. ندرك من هذه الآيات و المواقف النبوية أن السخرية لم تكن مرفوضة بشكل قطعي في الإسلام،إنما تقرن السخرية بغاياتها و نوايا الساخر و المعاني الساخرة التي يتضمنها هذا الخطاب. وهي الخاصية نفسها التي أكد عليها الفلاسفة و نقاد الأدب ،إذ يرتبط السخر بنوايا الساخر و غاياته.

3- السخرية و الأخلاق:جدل الهدم و البناء:

"نحن نعيش عصر السخرية بكل ما تشتمل عليه من تهكم و دعابة و محاكاة و مفارقة. و قد واكب هذا الانتشار عصر الحداثة و ما بعد الحداثة،حيث بناء النسق ثم هدمه، تكوين الفكرة ثم هدمها".[19] يؤكد جانكيليفيتش(*V. Jankélévitch*) في السخرية بعدين هما :خاصيتها النقدية،و بعدها الحواري،فهي- في نظره- وليدة تأمل عقلي ينفذ إلى حقيقة الأشياء دون أن يقدم أجوبة جاهزة،بل يحث الوعي الآخر على خوض مغامرة البحث عن الحقيقة".[20]

والسّخرية الحقّة لا تكون إلّا مع وجود التوازن الشّاق بين الجميل و القبيح، والنظرة المستوعبة للطبيعة والإنسان، ومن أجل ذلك تتجلى السخرية بشكل واضح في الخطاب الثقافي العربي و غير العربي تجليها في ثقافة النخبة كما في الثقافة الشعبية.الأمر الذي يدل على حاجة اللاّوعي الإنساني إلى رمز أسطوري،ينفذ الناس من خلاله إلى عمق الضحك، ينسى الإنسان على حدوده مأساته، وما تلك المفارقات اللامعقولة، التي تحفل بها الأقاصيص الخرافية(...) سوى مهرب رافض، يُخفي خلف السخرية المُسَطحة والدعابة الهازئة أعنف مظاهر الرفض والتمرّد على واقع غير مستقيم يُقصد إلى تشويهه والتندر عليه، وفضح صورته المشبوهة"[21]. إن هذا الهدم –في

حقيقة الأمر– يروم بناء واقع اجتماعي بديل.فالسّخر،ذو دلالة خاصة، باعتباره ظاهرة نفسية اجتماعية،تتأثر بطبيعة المجتمع وذهنيته،ورقي البيئة التي أفرزت هذا الموروث الساخر، فالسّخرية تطال شتى الظواهر الاجتماعية، كما أنّها تستدعي أدوات الفكر، واللّغة والحركة، وعناصر الإيماء المُعَبِّر،كما تلتحم بالأغاني والأهازيج الشعبية، لتستكمل وسائلها في الرّسم والترصّد، لما يبدو منحرفا، من أجل مَسْخِه بطريقة كاريكاتورية، تفضح العيوب، وتجعل صاحبها ينفر من صورته، فيلجأ طوعًا إلى إصلاح نفسه، كما تكون ذات هدف تربوي، يجعل الآخرين يبتعدون عن الصورة المنحرفة، كي لا يصبحوا مثاراً للسخرية والضّحك، الذي يأتي عقوبة اجتماعية، تقع على المثال الخاطئ.[22] ففي عنفها،تمارس السخرية رادعا للمخطئين، حيث تدفعهم إلى اجتناب السلوكيات التي تجعلهم مادة للسخرية.

لقد لاحظنا أن جل تعريفات السخرية تتفق على القول بوجود مكون أخلاقي فيها ،هو الذي يفصل بين السخرية و الفكاهة الخالصة،و مع ذلك فإن للسخرية طابعا أخاقيا محافظا،إنها تنتقد مظاهر البعد عن القيم التقليدية الراسخة: الشجاعة،الكرم، الصدق...إلخ فإن هدفها أن تعيد الإنسان إلى نفسه،إلى نسقه الأخلاقي و الاجتماعي الذي ابتعد عنه.إنها هكذا ليست حرة إبداعية محلقة كالفكاهة.فالفكاهة عامة، و السخرية خاصة"[23]. أو بعبارة أخرى هي فكاهة غايتها أخلاقية بالدرجة الأولى.فالسخرية ،محافظة تحاول أن تعيد الأمور إلى سيرتها الأولى. في الفكاهة خيال جامع، و في السخرية إدراك قاصر.في الفكاهة مرونة و طلاقة و تعدد و كثرة. و في السخرية صلابة وأحادية و قوالب أقرب إلى الجمود.[24]فالسخرية إذا شكل من أشكال الفكاهة هدفها مهاجمة الوضع الراهن في الأخلاق و السياسة و السلوك والتفكير. و هي بذلك تتبنى لغة النقد الهادف إلى التقويم و التخلي عن الأخطاء،"إن اللغة النقدية الساخرة لغة واصفة أولا و أخيرا،إذا فهي لغة الأزمة أو التأزيم و لغة النقد بامتياز"[25] . و إذ هي أسلوب نقدي له مميزاته الفنية،اعتبرت في الواقع بناء للحياة و حارسا للمثل العليا.و هي تتعمد إيقاع الآخر في حرج مقصود لدفع حرج أكبر،و رد خطر قائم أو متوقع، مما يعتبر عملا إنسانيا شريفا و ساميا[26] .إن تمتع السخرية بخاصيتي الهدم و البناء لاحظها عديد النقاد،أمثال إلفين كرنان (Alvin Kernan)إذ يرى أنه يوجد قطبان في السخرية:النسق الأخلاقي،و الأسلوب اللعوب،هنا يكون الخيال النسبي هو الظاهر. و المعيار الأخلاقي هو المستتر،ترتدي مسوح الشياطين،تعمل السخرية موجهة أساسا إلى الهدم والفوضى و التدمير،بل إنها يمكن أن تكون شيطانية أو ترتدي مسوح الشياطين.تعمل السخرية على المستوى السيكولوجي المرتبط بالتوتر و الشك و الحيرة و عدم الاستقرار،مستوى اللا يقين الذي يمتزج عنده أو يتصادم المحتوى الأخلاقي أو الشكل الهدمي التدميري ما بعد الحداثي العنيف من أجل العودة بالأخلاق و السلوكيات إلى شكلها المحافظ القديم الأثير.الفكاهة مجددة و السخرية محافظة.[27]إن التخلص من الانفعالية هو ما يولد

احتمالية الخطاب الساخر و يرفع الفرد فوق نفه و فوق الآخرين.[28]تختلف النظرة إلى السخرية إذاًعن الفكاهة بالنظر إلى الهدف الذي تسنده للعالم الخارجي،ذلك أنها تنشد تغييره،و تعود منه متألمة.

و إذا كانت السخرية فكاهة راقية فلأنها تُنفر من الاعوجاج بالضحك الذي يتولد عنها، وهي "الهزء بشيء ما،لا ينسجم مع القناعة العقلية، ولا يستقيم مع المفاهيم المُنتَظَمة في عُرف الفرد أو الجماعة، "ففي كلّ انقطاعٍ عن المألوف شيء ما يثير الضحك". [29] و الحقيقة أنه ينبغي النظر إلى السخرية بوصفها أمارة،و ليس المقصود بذلك عدّها عرضا،وإنما هي وسم يخفي بقدر ما يشف،فالسّخرية بهذا المعنى هي إثارة الضحك الناجم عن مواقف تتعارض مع المعتاد، وتصطدم بالتقليدي، إنّها وليدة الغرابة والدّهشة التي يأتي بها الموقف المُقْحَم،على العقلاني المُنْتَظَم،لذلك تستولد الضّحك الآلي،الذّي يأتي بمنزلة ردّ فعل أوّلي، وعفوي على انهيار المُثُل المُرتَّبَة في العقل، أمام موقف مفاجئ، يُعَرّي ما اتفق على اعتباره مثالا ويضعه –وجها لوجه– أمام نقيضه، وفي عبث هازل وسخرية لا ترحم، لأنها تحمل أعمق أنواع المواجهة والتعرية.[30] إن هذا المنحى العدواني في الخطاب الساخر،هو ما يجعلها تتأرجح بين قطبين متناقضين، و غايتين متنافرتين: الهدم و البناء. فمن الناحية الأخلاقية أيضا ارتبطت السخرية بالخداع و الإخفاء و الاستهزاء،فالساخر مخادع لأنه يخفي حقيقته عن محاوره. فالسخرية مجافية للحقيقة لأن ظاهرها غير متطابق مع باطنها،و هي في نظر سقراط ضرب من الخديعة و إخفاء الحقائق، و هو ما يجعلها قريبة من الكذب و ملتبسة به"[31] و قد سعى جانكيليفيتش إلى رسم الحدود بين الساخر و الكاذب،أي بين الأخلاقي و اللاأخلاقي من خلال طبيعة وعي كل من الساخر والكاذب،والنوايا المخبوءة لكل منهما. فالوعي عند كليهما معقد و مليء بالأسرار ، أو هو وعي متاهي.لكن وعي الساخر وعي طيب، في حين أن وعي الكاذب وعي شرير. و إذا كان الكاذب يحتقر مخاطبه المخدوع،فإن الساخر يعقد علاقة ود و تواصل بينه و بين مخاطبه لأنه لا يبحث عن مصلحة ذاتية كالكاذب"[32] فالسخرية بهذا المعنى شكل من أشكال الوعي الراقى،لأنها وعي منغرس في الواقع المعيش،غير أنه قادر على الانفصال عنه و التعالي عليه من خلال فضح تناقضاته و كشف اعوجاجه في مسعى معرفي تربوي يدفع إلى التفكير في عالم أفضل غير متحقق. و لذلك يؤكد جانكيليفيتش على أن " السخرية وعي طيب و مرح، و ليست وعيا ساذجا و بسيكا و مباشرا"[33]. فالساخر يتقن التخفي و التلاعب بين الظاهر و الباطن ومداراة الواقع دون التماهي معه.

لكن السخرية لا تعني مجرد الاستهزاء و الانتقاص من اللامرغوب فيه و المبتذل.إنها بديل أخلاقي و إيديولوجي للاأخلاقي الرديء .فهي تقدم الزمان و الفضاء البديلين، لأنها وعي انتقادي أو انتقاد واع يفضح الخطاب المضاد متفشيا سر حقيقة و همه . و هي بذلك ترفد

الباث و متلقيه بفرحة القصاص الماكر من الأفكار المزيفة و المحنطة. و بقدر ما تفتح للبسمة طاقة ، تشرع طاقات البصر و البصيرة على الفجائعي و المريب و السلبي و الاستيلابي.[34] من هنا كان الهدم و التهشيم في الخطاب الساخر، مرحلة ضرورية غايتها إقامة بناء جديد، بديل عما كان سائدا.

4- مسألة حدود السخرية:

و بما إن لغة الساخر لغة تتمتع بدرجة من الحرية التي تكسر الحدود بل قد لا تعترف بوجودها من الأساس. و إذا كان السخر السياسي مقبولا –إلى حد ما– بحيث يدخل في باب النقد و التنفيس ،إلا أن السخر إذا لامس حدود الدين و اللون و الجنس،فإن مسألة التعاطي معه تطرح عديد المشاكل . و لا يحدث هذا في الثقافة العربية الإسلامية فحسب بل حتى في الثقافات التي تدرج حق السخر ضمن مبدأ حرية التعبير, لكنها في الوقت ذاته تجرم السخرية إذا ما تعاطت مع موضوعات بعينها، مثل مسألة الأديان و الأعراق.

تُناقش إذن مسألة جواز السخرية و جدواها، بشكل قوي في الساحة الإعلامية المعاصرة،بسبب انتشار الظاهرة في وسائل الإعلام من جهة،و بسبب ضبابية تحديد مفهوم حرية التعبير من جهة أخرى،حيث يرى الدكتور مسعود صبري أنه من الخطر اعتبار البرامج الساخرة لا علاقة لها بالدين، و أن الحديث عن بيان رؤية العلماء فيها نوع من الاعتداء على حرية الإعلام،و أن العلماء يحشرون أنفسهم في كل صغيرة و كبيرة،و يدخلون الدين في أشياء لا علاقة لها بالدين مطلقا.[35] بل و يدعو إلى وجوب التفريق بين السخرية و النقد.فالنقد حاجة ملحة لا غنى للناس عنها،و هو ما يعبر عنه بلغة الشريعة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.[36] و لا يجب إغفال خطر هذا الشكل من الخطاب،فمن الضروري البحث في أسباب هذه الجماهيرية التي تحققها البرامج الساخرة و لا تحققها –بالمقابل– البرامج التي تتبنى الأسلوب الجاد طريقا لها.

يقول أحمد الزغبي "استطاع الإعلام الساخر أن يكسب قلوب ملايين من الشعوب العربية،عندما شعروا أنه إعلام "شعبي" و يحمل في طياته ألما "شوارعيا" ليس بالمعنى السلبي..و إنما بالمعنى الإيجابي"[37] ،لكنه– في الوقت ذاته– يؤكد على ضرورة ضبط هذا الإعلام "عندما نتكلم عن معايير تحكم الإعلام الساخر،فإننا بالطبع لا نتكلم عن معايير "دستورية" أو "فرمانات" مكتوبة على الإطلاق،و إنما هي معايير مهنية و أخلاقية يجب أن يلتزم بها من يلبس وجع الشارع و يستعير لسانهم و ينبض بوجدانهم سواء كان ما يقدم مرئيا أو مسموعا أو مكتوبا... و من هذه المعايير احترام الديانة والمعتقد"[38] فحرية التعبير لا تعني حرية السباب و الشتم و المعايرة،إذ كل نشاط إنساني لا بد له من ضوابط ومعايير،يؤكد ذلك الباحث نفسه في قوله"أنا أؤمن بأن أي شيء في هذه الدنيا لا تحكمه معايير و ضوابط حتما سيصبح الابن الشرعي للفوضى و الفلتان ثم التهاوي و

السقوط.و عندما نتكلم عن الإعلام بشكل عام و الإعلام الساخر بكل خاص،فإننا نتكلم عن أخطر كائن خطابي يحتل صدارة "الميديا الجديدة" و هذا الكائن إذا لم يحمل رسالة و هدفا في مضمون طرحه تبقيه على حريته و التزامه الفطري و المهني،فإنه سيتحول إلى كائن مفترس".[39]

و السخرية الإيجابية إذا،هي التي تفوق بوعيها إجمالا ما يمكن أن يتسرب إليها من اللاوعي،إذ إنها تتعامل مع المسخور منه بكثير من الاتزان، فلا تنتقم منه لحقد تربى في صدر صاحبها...إنها السخرية التي لا تضيع معها القسوة،لكن هذه القسوة لا تصل حد النزق."[40] فالحد الفاصل بين الأثرين المتناقضين للسخرية شديد الدقة،بل إنه قد يخضع لنوايا الساخر نفسه،"و هنا يبرز دور الظرف الذي يحاول أن يخفف وطأة النقمة،و أن يحول المتلقي إلى نحو من التسامح من المسخور منه...إن هذا التعاطف الأكثر تواضعا و تساميا في آن و الذي يفترض دائما،في الانتقال من الخبث إلى الرحمة بعض الدرجات من وعي الذات".[41]"و تجدر الإشارة إلى أن الإغراق في الإيلام و الإسراف في تضخيم السخرية يفقدها وقعها، ومضمونها الإنساني،في معظم الأحيان،كما أنه يعكس و يقلب الأدوار فيها،فبدلا من أن يسخر الناس من الساخر و الضحية،فإنهم ينقلبون عليه و يصبح هو مدعاة لسخريتهم و إن كان مجرد منظِم للمشهد إذ يأملون"[42] .فالسخرية تدخل ضمن النقد اللاذع "و النقد اللاذع حكم حاد،أو وصف قاس،مباشر أو غير مباشر،يوجهه شخص باعتبار أسباب موضوعية أو ذاتية إلى طرف آخر"[43] . إن هذا الملمح الذاتي في السخرية حتى و إن كانت ناقدة هي التي أوحت بملمحها غير الأخلاق، و قد تعرف بعض نقا د الحداثة وجود تناقض آخر ملازم للسخرية ألا و هو أن دافعها الآخر ليس سوى مجرد قناع يستخدم من أجل متعة أكثر بدائية بعيدة عن الأخلاق كلها،متعة تعيد الإنسان إل عالمه الأول الذي كان يتمتع فيه بالحرية،لكنه كان يشعر فيه بالخوف. هكذا قال ويندهام لويس (Wyndham Lewis)إن السخرية العظيمة ليست أخلاقية الطابع أبدا.إنها قد تدمر الأخلاق من أجل أن تصل إلى متعة متفكهة حرة باعثة عل السرور.[44]تحيل نظرته هذه على درجة حادة من السخرية تصل حد الإيذاء، و الحقيقة أنه كلما ازداد التناقض من حول الساخر كلما أفضى ذلك إلى عدوانية السخرية و يأسها من تغيير الأوضاع، إذ يفترض في السخرية الإسهام في تعديل العالم و توجيهه وجهة الحق و الخير ،إذيكتسب خطاب السخرية تأثيرا هاما و يؤدي دورا فاعلا في السياق الاجتماعي بسبب تطبيع تداوله على نطاق شعبي واسع،مرده تكنولوجيا الاتصال الجديدة التي عممت الخطابات مهما كان نوعها و جعلتها بين يدي المتلقي بسرعة فائقة كاسرة حدود المكان،مكتسية قوة كبيرة قد لا يتفادى خطرها،فليس عجيبا أن يتساءل بعض الباحثين في مجال الإعلام عما إذا أصبحت وسائل الإعلام الجديد ضحية نجاحاتها،بحيث صارت واثقة من نفسها أكثر من اللازم فنسيت القوانين المهنية والأخلاقية التي التزمت بها.[45]

و إذا لم تتحكم وسائل الإعلام الجديدة في المادة الساخرة التي تعرضها على الجماهير،بحيث تحولها إلى مادة ناقدة هدفها الأسمى تقويم الاعوجاج الذي قد يقع فيه الفرد كما الجماعة،فإن ثمة انعكاسات بالغة الخطورة،على المجتمع بحيث تتسبب في إثارة الضغائن و الأحقاد بين الناس،و تبلد الأحاسيس،ناهيك عن أثرها السلبي في بناء الأخلاق القويمة و الحث على الاستمساك بها. فالتمادي في السخرية و استمراءها اجتماعيا ، كفيل على المدى الطويل أن يميت التعاطف في النفوس،و يلهب لذة الاسترواح و الانغماس في القهقهات و الضحكات من كل شيء و على كل شيء،لينحدر الذكاء العاطفي القائم على اللين و التفاعل مع المحتاج و الملهوف،إلى غباء و بلادة،تتمظهر بشكل القسوة والغلظة،مفككة المجتمع أكثر فأكثر"[46] .و لعل المعيار الأفضل في قياس مدى إيجابية السخرية أو سلبيتها يكمن في ضرورة احترام المتلقي ،و لن يتم ذلك إلا من خلال احترام وعيه و ذكائه و مشاعره،و والابتعاد عن الاستخفاف بموضوعات لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون مجالا للسخرية من مثل: الديانة و المعتقد و الخلقة و الجنس واللون.

خلاصة النتائج:

ليس الظرف و الفكاهة و الضحك و الدعابة غايات السخرية،بل هي صفات يتمتع بها الخطاب الساخر،كي يحول مضمونه إلى استراتيجية نقدية تواجه العالم بتناقضاته و عنفه بسلاح السخرية. و يمكن تلخيص نتائج الدراسة في النقاط الآتية:

- السخرية مفهوم ذو دلالة لغوية و فلسفية و اجتماعية و ثقافية.
- السخرية استراتيجية خطابية تقوم بنيتها الأساس على مبدأ الضحك.
- أمست السخرية وشما للخطاب الثقافي العربي المعاصر بما في ذلك الأدبي و الإعلامي.
- في بعدها الأخلاقي، تثير السخرية في الثقافة العربية الإسلامية كثيرا من التوجس لما في الوعي الأخلاقي العربي الإسلامي من استشعار حرمة فعلها/اقترافها.
- ليس بالإمكان التعاطي مع عالم يقوم على المتناقضات إلا من خلال العين الساخرة.
- إذا كانت السخرية تقوم على مبدأ الهدم و التهشيم،فإن ذلك لا يجب أن يكون غايتها،و إلا تحولت عن مهمتها في تقويم الاعوجاج الأخلاقي.
- إن الهدم في السخرية ليس هدفا بحد ذاته،بل هو هدم يروم بناء جديدا صلبا يقاوم الانحراف و يحارب التناقضات.
- نهى الإسلام عن السخر الهازئ النابع من النفس الحاقدة المريضة ،و من ثم ربط السخر بنوايا الساخر.

–عد الإسلام السخر سلاحا بيد الإنسان لا يوظفه إلا إذا كانت غايته في ذلك رد الظلم أو المعاملة بالمثل.

هوامش :

[1]– قد تكون تجربتا كل من الجاحظ و أبي العلاء المعري فريدتان في مزج الجد بالهزل و النظرة غير المصنفة للخطابين.

[2]– ينظر زهير مبارك: السخرية في الرواية العربية، مركز الرواية العربية للنشر والتوزيع، قابس، تونس، ط1، 2011.ص:19-21.

[3]– جابر عصفور:"سخرية المقموع" مجلة العربي،العدد 604،مارس 2009،ص:76.

[4]– ينظر ابن منظور :لسان العرب:دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،ط1، 1986،مادة (سخر).

[5]– نبيل راغب: الأدب الساخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص: 45.

[6]– ابن منظور: لسان العرب مادة (هكم).

[7]– أبو هلال العسكري:الفروق في اللغة،دار الآفاق الجديدة،بيروت،ط4، 1980،ص:225.

[8]– للتوسع ينظر سيمون بطيش: السخرية في أدب مارون عبود، دار مارون عبود،بيروت،لبنان،ط1، 1983 ص: 17، 18

[9]– سوزان عكاري: السخرية في مسرح أنطوان غندور، المؤسسة الحديثة للكتاب،طرابس،لبنان،دط،1994. ص:30.

[10]– *Pierre Schoentjes: Poétique de l'ironie Edition du seuil, 2001* P :222 .

[11]– *Philipe Hamon:l'ironie littéraire Essai sur les formes de l'écriture oblique, Hachette supérieur 1996, paris, cedex.p :46*

[12]– أحمد الحوفي: الفكاهة، أصولها وأنواعها في الأدب، نهضة مصر،دط، 2001، ص: 177.

[13]– ينظر عبد القادر المازني :حصاد الهشيم،المطبعة العصرية،ط6، مصر،1960،ص:257

[14]–ينظر عبد الستار السطوحي:السخرية في الأدب العربي الحديث،عبد العزيز البشري نموذجا،الهيئة المصرية العامة للكتاب،دط،2002، ص:53

[15]– عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية للطباعة و النشر،بيروت،ط3، 1986.ص:94

[16]– أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، مكتبة دار الكتب المصرية،دط،دت،ج15، ص: 312.

[17]– عبد القادر هني: دراسات في النقد الأدبي عند العرب،من الجاهلية حتى العصر الأموي،ديوان المطبوعات الجامعية،بن عكنون،الجزائر ،ص: 72.

[18]–ابن رشيق:العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده،ج1، ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1973 ص:18

[19]–ينظر شاكر عبد الحميد:"عن الفكاهة اللطيفة و السخرية المؤلمة" موقه مجلة الدوحة:*aldohamagazine.com*

[20]– *Vladimir .Jankélévitch :L'IRONIEFlammarion ;Paris, 1964 ;P :183*

[21]– عكاري:مرجع سابق،ص:38

[22]– نفسه ،ص:38

[23]– شاكر عبد الحميد، الموقع نفسه.

[24]– ينظر الموقع نفسه

[25]– *RaduEmescu « Cahiers RoumainsD'étudeslittéraires ,edUnivers , Bucarest ,N 4.1974.P :5*

[26]– حامد عبده الهوال:السخرية في أدب المازني،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1992،ص:8.

[27]– شاكر عبد الحميد،موقع مجلة الدوحة.

[28]– عبد النبي ذاكر : مرجع سابق،ص:16

[29]–أدونيس (علي أحمد سعيد):زمن الشعر،دار العودة ،بيروت،مطبعة المتنبي،ط1، 1972،ص:28

[30]–ينظر عكاري: مرجع سابق،ص:24

[31]– زهير مبارك :المرجع نفسه،ص:22

[32]– زهير مبارك،نفسه،ص:22

[33]– *V.Jankélévitch :L'IRONIEFlamarion ;Paris, 1964 ;P :54*

[34]– ذاكر :مرجع سابق،ص:13

[35]– مسعود صبري:"الإعلام الساخر لا لون و لا رائحة"،الموقع :*shabab.alwaei.com*التاريخ:30-5-2015،التوقيت:19:55.

[36]– ينظر المرجع نفسه.

[37]–أحمد الزغبي:"...و هل نجح الإعلام الساخر حيث لم ينجح الإعلام الجاد؟" جريدة الشرق الأوسط،العدد:12697،سبتمبر 2013.

[38]– نفسه

[39]– نفسه

[40]– المرجع نفسه،ص:19.

[41]– المرجع نفسه،ص:19.

[42]–*106.:p ,Robert Escarpitl'humour, Paris.pressesuniversitaires de France.1975*

[43]– سمير شريف استيتية:اللغة و سيكولوجية الخطاب،بين البلاغة و الرسم الساخر،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت ،لبنان،ط1، 2002،ص:72.

[44]– شاكر عبد الحميد،موقع سابق.

[45]–ينظر فرنسيس بال:الميديا،ترجمة فؤاد شاهين،دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت،لبنان،ط،20081 ص :108

[46]–عاصم المحرمي :"السخرية المتوحشة و تداعياتها على المجتمع" موقع معاصرون:*moaseron.wordpress.com*،التاريخ:13-6-2015،التوقيت:20:55.